

تجليات النسق الصوفي وحضوره في الخطاب الشعري

عند مصطفى الغماري

Manifestations of the Sufi pattern and its presence in the poetic discourse of Mustafa Al-Ghamari

أمينة حماني *

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الارسال

الملخص:

سنحاول في هذه الورقة البحثية الوقوف عند المنجز الشعري للشاعر مصطفى الغماري الذي يعد من أوائل الشعراء الجزائريين الذين اهتموا بالخطاب الصوفي وخاصة في ديوانه أسرار الغربة، بغية استنطاق تلك الأنساق الثقافية التي اختزلها بين صفحات ديوانه من خلال مقارنة ثقافية نستند فيها على مقولات النقد الثقافي للبحث عن النسق الصوفي المهيمن وكيفية حضوره وتجسده في النصوص الشعرية. فكيف تجلى النسق الصوفي في ديوان أسرار الغربة لمصطفى الغماري؟

كلمات مفتاحية: الخطاب الصوفي، الشعر الجزائري، مصطفى الغماري.

Abstract:

In this paper, we will try to stand at the poetic achievement of the poet Mustafa Al-Ghamari, who is considered one of the first Algerian poets to take an interest in Sufi discourse, especially in his collection of secrets of alienation, in order to interrogate those cultural patterns that he reduced between the pages of his collection through a cultural approach in which we rely on the arguments of cultural criticism to search for The dominant Sufi pattern and how it is present and embodied in poetic texts. How was the Sufi pattern manifested in Mostafa Al-Ghamari's collection of Secrets of Exile?

Keywords: Sufi discourse, Algerian poetry, Mustafa Al-Ghamari

*** **

مقدمة

يعد النقد الثقافي من أحدث التوجهات النقدية والمعرفية التي عرفها العالم الغربي مع نهايات القرن الماضي، حيث يبحث هذا النشاط عن الثقافي داخل الأدبي، وقد ظهر ذلك جلياً إثر الدعوة إلى نقد "جديد" يتجاوز مقولات النقد الأدبي وعلى رأسها الجمالية، إلى نقد ثقافي يهتم بالأنساق الثقافية المضمرة حلف البناء اللغوي، الأمر الذي دفع به إلى التقاطع مع معارف إنسانية مجاورة.

يعد النسق مفهوماً من المفاهيم التي انصبت عليها الدراسات الثقافية، فهو نظام الأشياء أو عطفها على بعضها وتتابعها، وبالتالي فإن مصطلح نسق يمكن تحديد معناه في اللغة بأنظمة الأشياء، أو تتابعها وتواليها في نظام واحد، فالنسق الصوفي هنا نقصد به كل تلك الممارسات والطقوس والمصطلحات التي تصب في قالب واحد ألا وهو الصوفية، ومنه فالنسق الصوفي هنا في الرواية يشغل ضمن المعنى الخاص بالدراسات الثقافية والنقد الثقافي، فالنسق هنا يركز على معايير وقيم تشكل مع الفاعلين الآخرين جزءاً من بيئة الآخرين، ومنه النسق الصوفي لا يستمد معناه إلا داخل علاقات أخرى من شخصيات وأماكن وممارسات وطقوس وغيرها تندرج ضمن نظام ديني واحد يعرف بالصوفية.

ولقد قوضت الدراسات الثقافية مركزية النص واهتمت باعتبار ما يفرزه من أنظمة ثقافية، فالنص هذا وسيلة وأداة، وحسب مفهوم الدراسات الثقافية ليس النص سوى مادة خام يستخدم لاكتشاف أنماط معينة من الأنظمة السردية والإشكاليات الأيديولوجية وأنساق التمثيل وغيرها... ولما كان الشعر ديوان العرب وجنس أدبي يحمل داخله قدرة استيعابية واختزالية كبيرة، حيث تستطيع القصائد

الشعرية حمل قضايا اجتماعية وثقافية وسياسية ودينية عديدة... لتقولبها في ثناياها وق جدلية بين الظاهر والباطن، بين السطحي والعميق، تخبرنا بأشياء بينما توكل لنا مهمة البحث والتحري عن أشياء لم تصرح لنا بها.

وهنا يمكن أن نقول أن الشعر بحث مستمر عن أفق مفتوح، أفق يتطلع للمستقبل، حتى لو كان مرتبطاً بالحاضر، ومهمة الشاعر هي المغامرة في تجريب الأشكال الجديدة بخلخلة الأشكال القديمة¹، فهذه الأخيرة توظف في جعلتها أنساق قديمة في قوالب جديدة ومتنوعة، مثل ما هو الحال باللجوء إلى التجربة الصوفية، كممارسة إبداعية وفلسفية لرؤية الكون، والتي تمثل مظهر من مظاهر الحداثة في الشعر الجزائرية، حيث نجد العديد من الشعراء ينجذبون ولأغراض فنية أو إيديولوجية إلى التراث الصوفي، فهم يجعلون من محكيهم، كما قال إيف تايبى: "جماع أجناس، يحتضن الشعر والسرد والمسرح وارسم والأسطورة/ خرافة وحلما وسحرا...، كما تتلاقح غيه كتابات الرحلة، بطابعها الاستكشافي، وبالتالي يمتلك بنية مفتوحة ومتعددة الخطابات، وبهذا تصبح القصائد مداراً للتجريب ومجالاً لاحتضان الرؤية الصوفية، التي تداخل فيها الرؤية الشعرية والرؤية الصوفية.

1_ في مفهوم الصوفية والتصوف:

إن الحديث عن الرؤية الصوفية و النسق الصوفي هو مراجعة تاريخية واستحضار لما هو عقائدي وفكري متعلق في الواقع بالإلهيات الإسلامية في معركة فكرية روحية أدت نتائجها إلى زعزعة العالم الإسلامي حيث تحمل التجربة الصوفية ثراء واسعاً مما كان له بالغ الأثر في استمرارية قراءتها الحضارية والثقافية المعاصرة، فالتصوف في دلالاته المعجمية الاشتقاقية مرتبط

بالصوف، وهو في حمولاته الاصطلاحية رحلة روحانية يمارسها إنسان متصوف يعتمد على التجلي الرباني بعد أن يتخلص من برائن الجسد، وهو بهذا المعنى علم إصلاح النفس وتهيئة الروح لتسمو باتجاه العالم العلوي، وهو بهذا يترجم استجابة لحنين الروح إلى مصدرها الأول ذلك الحنين الذي يقوى كلما قلت سيطرة الجسد على الروح.

ومن المعروف أن استيعاب المصطلح الصوفي وتمثله خطوة أساسية ومرحلة مهمة لفهم النسق الصوفي، لكون هذا المصطلح زئبقي تتغير دلالاته المفهومية والتصورية حسب كل صوفي ومقام سلوكي وتجربة عرفانية، فالمصطلح الصوفي هو عبارة عن مفهوم تصوري يعكس مضمون التجربة الذوقية الوجدانية التي يعيشها المريد السالك في رحلته الروحانية من أجل تحقيق الوصال أو اللقاء الرباني، وينقسم المصطلح الصوفي إلى دال ومدلول ومرجع، فالدال عبارة عن فونيمات صوتية، أما المدلول فهو المعنى الذي تعنيه هذه الأصوات، ويقصد بمصطلح الصوفي لا يمكن إدراكها عن طريق العقل أو الاستدلال أو البرهان أو عن طريق التجريد التأملي، وإنما هي مصطلحات لا يمكن استيعابها أو التحقق منها إلا عن طريق الذوق والقلب والوجدان والحدس وتأويل الممارسة الروحانية وتحويل تجربتها السلوكية والعملية إلى دوال رمزية تقارب التجربة الدينية بشكل نسبي ليس إلا، وفي هذا الصدد يقول الأستاذ حسن الشرقاوي: "إن هذه الألفاظ لا تعرف عن طريق منطق العقل والنظر بقدر ما تفهم عن طريق الذوق والكشف، ولا يأتي ذلك إلا لسالك يداوم على مخالفة الأهواء، وتجنب الآثام، والبعد عن الشهوات، وإخلاص العبادات، والسير في طريق الله... حتى تتكشف لهذا المريد الصادق غوامضها، وتتجلى له معانيها".²

فمصطلح الصوفي له ظاهر خاص بعامة الناس، وباطن لا يدرك إلا بالكشف والتذوق وهو خاص بالأولياء والمريدين ولا يفهمه سوى الخاصة الذين تركوا الدنيا وزهدوا في الحياة وأقبلوا على الخلوة والتفكير في الذات الربانية عشقا وانصهارا. إذن فالتصوف "جواهاً فكرياً، يمثل مرحلة راقية من مراحل تطور الفكر الديني حين تتدخل القوى العقلية في إثبات قدرتها على الإدراك إلى جانب النص الديني، إنها حركة إيقاظ للقدرة التأويلية للتفكير الإنساني في مواجهة مجاهيل الكون وخفايا الإنسان وحقيقة الخالق عز وجل وسبيل الوصول إليه".³

وإحدى أم الوظائف التي أنتجها الأدب الصوفي هي البحث عن المجهول أو اللامرئي، أو كما يقول "صابر عبد الدايم": «والبحث عن ما وراء المحسوس من أخص خصائص التصوف، ثم انتقلت هذه الخاصية إلى الأدب الصوفي، فصار البحث عن الحقيقة والنفاذ إلى صميم الأشياء، وكشف ما وراء الطبيعة، إحدى سمات الأدب الصوفي».⁴

أو كما يقول "سعد عيسى" عن تجربته الصوفية: «إنها حالة روحية، يتصل فيها العبد بربه إتصال المتناهي باللامتناهي، وهي تجربة لا تخضع لمنطق العقل الواعي وإنما هي حالة من حالات الوجود الباطن، لها رموزها الخاصة ومن ثم فهي غربة روحية واعتزال العالم البشري».⁵

ومما لا شك فيه أن المدونة الصوفية تتمتع بحقل دلالي متميز يكون أشد التصاقاً بالتجربة الصوفية، وأبعد عن الدلالات المعجمية المألوفة، فالعبارات طبقات ملفوظية تحيل إلى شبكة من المدلولات المعقدة حيث يتداخل فيها الذاتي بالروحي، الطبيعي بالغيبي والعقلي باللامعقول والإنساني بما فوقه، وعليه فالولوج إلى عالم الكتابة

كان توظيفه لهذا النوع من الرموز ينجح إلى الدراسة الموضوعية على حساب الجانب الفني الجمالي⁹.
والرؤية الصوفية قد تمثل ملاذاً يلجأ إليه الشاعر في محاولة منه للإفلات من عالم المحسوسات والتسامي إلى عالم المثل العليا أماً في الخلاص وبحثاً عن المعادل الوجداني لكيانه المفعم بالسمو والامتلاء، وهنا تقع الصوفية في تماس مع الشعر باعتبار أنه تعبير عن تجارب روحية، ومحاولة للكشف عن المطلق، ولعل هذا ما أراد الشاعر الجزائري المعاصر "عبد الله حمادي" التعبير عنه في قوله:

الشعر وثب على سرج الأقمار
وطول شوق إلى استنطاق أفكار¹⁰

لقد أراد الخطاب الصوفي أن يتوغل بالوعي الإنساني نحو أعماق معاني سمو على رتبة الحياة وتقاهتها، وأن يخلص الذات من أسرها، ويخرجها من هشاشة الواقع ويخلق بها في سماوات المطلق اللامتناهي، قصد تجديد النبض الروحي، وبغية ارتقاء أعلى موجات الصعود المتعالي¹¹.

وبذلك تؤسس التجربة الصوفية في الشعر الجزائري المعاصر كحل فردي لتعاسة الواقع، وبؤس الحياة من خلال رفضهما ومجاهدتهما، ويتجلى ذلك في شيوع معاني الإحساس بالغربة والظمأ النفسي لمعانقة المطلق في المتن الشعري، وبما أن الرؤية العادية للأشياء لا تصل إلى إدراك المطلق، كان على الصوفية أن تسلك مسلك الحدس الذي ينشأ نتيجة اتحاد مباشر بين الذات وبين الموضوع، وثمة نوع من وحدة الوجود الروحية.

والكتابة في مثل هذا الحال تكون غامضة بالضرورة، ومستعصية على القارئ الذي ألف برودة العقل وسهولة الوضوح... إنها كتابة بالأعصاب

الصوفية يتطلب منا النفاذ إلى الموضوع الصوفي من خلال فهم العبارة التي تنطوي على الكثير من الترميز وهو الأمر الذي لمسناه في ديوان "أسرار الغربة" لمصطفى محمد الغماري⁶، التي تحمل العديد من المشاهد والأماكن والطقوس الصوفية.

2_ الخطاب الصوفي في الشعر الجزائري

المعاصر:

يقصد بالخطاب الصوفي تلك النصوص التي أنتجها المتصوفة عبر العصور، و"حصلت تحصيلاً كافياً صيغها الصرفية، وقواعدها النحوية، وأوجه دلالات ألفاظها، وأساليبها في التعبير والتبليغ"⁷، تعكس هذه النصوص التجربة الذاتية، التأملية من ناحية، والتي لا تتأتى إلا بالغور في أعماق النفس، وتطهيرها من حب الدنيا وزخرفها وإدخالها في الطمأنينة وإذكاء كوامن الإيجابية فيها من حب وجمال... وغير ذلك، ومن ناحية أخرى التجربة الوجودية، المعرفية التي لا يتحقق إلا بتجاوز حجاب المادة، وقد شمل الخطاب الصوفي نصوصاً مختلفة من الشعر، وقصص الخواص والكرامات والأدعية والمناجيات، والحكم، والأخبار.... وغيرها من الأشكال التعبيرية التي تلقي جميعها في هدف واحد وهو الاتصال بالذات الإلهية بطريقة ذوقية.

لم يكن الخطاب الشعري الجزائري بمعزل عن الصوفية، إذ للتصوف الإسلامي جذوره في أرض الجزائر مع الفتوحات الإسلامية⁸، غير أن الخطاب الصوفي لا يكاد يذكر له حضور حقيقي إلا في شعر ما بعد الاستقلال، وبدء من شعراء السبعينيات، ويمثلهم "مصطفى محمد الغماري" كأحد أبرز الشعراء المعاصرين تعاملًا مع الرمز الصوفي، وإذا

"غداً يا قصتي السهراء أجنبي منك إسعادي
فيخضر الهم الظمان في أعماق امجادي
ومن حولي هتافك يرتوي من كرمه الوادي
يصم الله فاصلة.... تعطر دربنا الصادي
وأنت أنا.... على شفئك يا هيلانا أورادي
وملء يدي جدائك الوضاء تلم أبعادي"¹³
وإن كان لا يجمع بين تلك الأسماء في
مقطوعة واحدة عادة ولا يردها متوالية في بيت واحد
كما عند ابن الفارض¹⁴، إلا أنه يظل تعبيراً يثم عن
عجز اللغة عن الإحاطة بالمعشوقة المقدسة ممثلة
في العزة الإلهية بالنسبة للصوفي والعقيدة
الإسلامية بالنسبة للشاعر الغماري.

ومما سبق يتضح لنا أن (أسرار الغربة) سفر
نحو العقيدة المقدسة يتوسل فيه الشاعر أسراراً
صوفية يستمدّها من الجواهر المقدسة، ليخوض
حرباً حامية الوطيس، لا هوادة فيها مع كلّ أشكال
الإعاقة التي تحول دون إعلاء لواء العقيدة المؤدية
للخلاص والمتمثلة في رمز الغربة.

وخلاصة القول إن تمثل الشاعر للنسق
الصوفي لم يرق إلى حد الحلول فيه والتوحد به، بل
ظلّ متأرجحاً بين الرموز الصوفية التي يعجّ بها
الديوان، وخاصة منها رموز معشوقته العقيدة
الإسلامية ورموز بعض الأحوال والمقامات وتحديداً:
السفر، والمحبة، والسكر، هذه الرموز التي تتجلى
في مختلف قصائد الديوان، خاصة منها تلك التي
تتسم بصوفية عنوانها.

خاتمة:

في تجربة التصوف، يعيش الإنسان والشاعر
خاصة محاصراً بين الصمت الذي تفرضه طبيعة
الأحوال الذوقية، والنطق الذي تستدعيه الحاجة
إلى الإفصاح عن المشاهدات، والرؤى، وتقلب
الأحوال بين اليأس والرضى، والقبض والبسط
والمنع والعطاء....

والارتعاشات والتوترات الجسمية والروحية، كتابة
بالشهيق والزفير، كتابة يأس على حدود الأمل،
وأمل على حدود اليأس¹²، وقد تغلغل الرمز
الصوفي في الشعر الجزائري المعاصر، وبرز في
تمظهرات متنوعة، فتجلى في نمطين أساسيين:
أولهما: الحب الصوفي أو ما يتعلق به من
ألوان الغزل.

وثانيهما: الخمرات وما يصحبها من سكر
وشطح وبوح، إضافة إلى أشكال أخرى تتأرجح بين
هذين النمطين: كالسفر والغربة.

2_ تجليات النسق الصوفي في ديوان أسرار الغربة :

يعد ديوان "أسرار الغربة" لمصطفى
الغماري المدونة الشعرية الأساسية في بحثنا، وفيها
يجنح الغماري إلى توظيف الرموز الصوفية،
وتصطبغ بالحس الصوفي، ويبدو ذلك واضحاً بداية
من عنوان الديوان وانتقالاً إلى عناوين بقية
قصائده، نحو (عودة الخضر) و(ثورة صوفية)،
و(الشوق الأتي)، و(لا أملك إلا ك) و (موال
عاشق)... إلخ، وإن كنّا نقرّ مسبقاً، بأنّ كون
العناوين ذات وقع صوفي، لا يعني بالضرورة صوفية
قصائدها.

يتألف هذا الديوان من اثنتين وثلاثين
قصيدة، لا يظهر تواصلاً جوهرياً بين عناوينه ولا
بين قصائده، من حيث تلاحمها في بنية كبرى
لتشكيل نصاً واحداً، مع ذلك فإنّها تصبّ في محور
واحد وهو العقيدة الإسلامية التي تغنى بها الشاعر
كمعشوقة متميزة، وإن كان لا يعني بأسلوب التائي
والندرج في الكشف عن هويتها، إنّما هو يصدق بها
في كلّ قصائده مبرزاً حيرته الصوفية في وصفها،
وتسميتها، فيطلق عليها مرّة اسم "ليلي" ومرّة "
سمحاء" وأخرى "هيلانا" وهكذا... ليبدى حيرته
إزاء العقيدة المقدسة مشاكلاً بذلك اللغة الصوفية:

وبالتالي فإن النسق الصوفي هو نسق الصمت والنطق معاً، ولذلك فالمتصوفة هم أصحاب مقامات، ومقالات يحاول الواحد منهم أن يستتر في صمته، ويخفي ما به، ثم يجد نفسه مضطراً إلى أن يصف حاله، وينطق بما في سريره، وكلما استبدَّ به الصمت من جهة، إلأً واشتدت حاجته إلى النطق معبراً عما رآه في ساحة الصمت. والكتابة الصوفية هي عبارة عن تعريف المقام الصوفي مهما اختلف، مما ينفي عنها كونها لساناً مترجماً للمخزون الثقافي الذي يكون قد اكتسبه الصوفي نفسه من سابق مطالعته في شتى صنوف المعرفة، فالكتابة هنا ليست تنميقة للأسلوب أو تتبعاً للإبداع أو اختياراً عقلياً للألفاظ والصيغ مما يقدر عليه الفكر.

الهوامش والإحالات:

- ¹ — بشير مفتي، خرقه الرواية، إضاءات داخلية، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة، الجزائر، العدد 01، 2004، ص33.
- حسن الشراقوي، معجم ألفاظ الصوفية، مؤسسة مختار للنشر، القاهرة، ط1، 1987، ص7².
- ناهضة ستار، بنية السرد في القصص الصوفي (المكونات، الوظائف، التقنيات)، دراسة، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003، ص: 20³.
- ⁴ — عبد الرحمن القعود، الإبهام في شعر الحداثة، ص: 37.
- ⁵ — المرجع السابق، ص: 37.
- ⁶ — ترجمة موجزة لمصطفى محمد الغماري: مصطفى محمد الغماري شاعر جزائري، من مواليد 16 نوفمبر 1948 بسور الغزلان التابعة لولاية البويرة، ينحدر من أسرة محافظة ومتدينة، تعني عناية خاصة بالثقافة العربية الإسلامية، لقنه أبوه مبادئ الصلاح والفلاح، ونما فيه حب الخير، وغرس فيه الفضيلة... فتعلم على يد والده مبادئ اللغة العربية والتوحيد والفقه والتاريخ.
- وتمت دراسته الإعدادية الإعدادية بالجزائر العاصمة في المعهد الإسلامي لحسين داي على الطريقة الأزهرية، ثم رحل إلى ليبيا لإتمام دراسته الثانوية، وكان ذلك في العهد الملكي وبعد حصوله على شهادة الثانوية العامو لمعادلة للبكالوريا الجزائرية، عاد إلى أرض الوطن، والتحق بجامعة الجزائر — قسم اللغة العربية، حيث تخرج منها سنة 1972 بشهادة الليسانس في الأدب العربي.
- وبعد ذلك واصل الغماري دراسته العليا ما بعد التدرج لينال شهادة الماجستير في النقد الأدبي الحديث بدرجة مشرف جداً تحت 'شرف الدكتور حامد حنفي داود عن طريق أطروحة " الصورة الشعرية في شعر أحمد شوقي، وواصل بعد ذلك بحوثه، فتحصل على شهادة دكتوراه دولة بدرجة مشرف جداً عن أطروحة

- حول " المحاكمات بين أبي حيانوالمحشري وبن عطية فيما اختلفوا فيه من إعراب القرآن الكريم" دراسة وتحقيق لكتاب العلامة أبي زكاريا.
- وقد تعددت بعد ذلك إنتاجات الشاعر مصطفى الغماري الأدبية والشعرية وازدهرت ومازال يبدع إلى يومنا هذا، وهو أستاذ جامعي للغة العربية وآدابها بجامعة الجزائر العاصمة وغرداية.
- وتفرعت ابداعاته إلى جانبين الأول شعري، والثاني أكاديمي، ومن دواوينه الشعرية نذكر:
- أسرار الغربة، يعد باكورة الشاعر، حيث أسال حبراً كثيراً وأثار ضجة كبرى وقد صدره سنة 1978، حتى كاد يصادر، إلا أن نفاذه ما لبثوا أن فهموا نزعتهم الصوفية، فاستحسنوه، وأعيد طبعه من جديد سنة 1982.
- نقش على ذاكرة الزمن 1979.
- أغنيات الورد والنار 1979.
- خضراء تشرق من طهران 1980.
- قصائد المجاهد .
- ⁷ — أمانة بلعلي، تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، دار الأمل للطباعة والنشر، ط3، 2009، ص19.
- ⁸ — الطاهر بوناني، التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7 الهجريين، دار الهدى، الجزائر، 2004، ص238.
- ⁹ — ربيعة بلعلي، بنية الرمز الصوفي في الشعر الجزائري المعاصر، رسالة ماجستير، مخطوط جامعة باتنة، الجزائر، 2005، ص80.
- ¹⁰ — عبد الله حمادي، تحزب العشق ياليلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص216.

¹³ __مصطفى محمد الغماري، أسرار الغربة، الشركة الوطنية للنشر

والتوزيع، ط2، 1982، ص16.

¹⁴ __عمر ابن الفارض، ديوان، ص145.

¹¹ __عبد القادر فيدوح، الرؤيا والتأويل، دار الوصال، الجزائر،

1994، ص56.

¹² __أدونيس، الصوفية والسريالية، بيروت، لبنان، 1992،

ص58_59.